هل اللغة العربيّة غنيّة؟

ام هي فقيرة قاصرة عن التعبير عن حاجات العصر ؟

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

ان البعض من كتّابنا يبالغ اشدّ المبالغة في وصف اللغة العربية ، وغناها وكثرة ترادفها ، وسعة تعابيرها ، وينسب اليها من الحسنات والصفات ، ما لا يقع عليه عدّ ولا احصاء ، ويجعلها في مقام ارقى اللغات واكملها ، ويدّعي انها قادرة بلا الاستعانة بغيرها ، على القيام بحاجات العصر الحاضر ، والتعبير عن المعاني باجمعها . ومنهم مَن يُصرّح بقصورها عن مجاراة غيرها من اللغات ، وينسب اليها العجز والقصور ، ويرغب في خلق لغة اخرى تقوم مقامها ، وتقوى على سدّ حاجات عصرنا . ولمّا كان الفريقان مخالفَين في دعواهما ، مائلَين عن النهج القويم ، رأينا ان نعرض رأينا في ذلك على العلماء والادباء امله يروقهم فنقول :

١

اللغة

لمّا كان الانسان من طبعه عاقلاً مدركاً ، احتاج ، بلا ريب ، الى دلالات ، او الفاظ ، وان شئت قل الى اصوات ، ليعبّر بها عما ينطبع في عقله من التصوّرات والمعاني وذلك لانه لا يستطيع ان يعيش وحده كالوحوش في القفار ، بل يفتقر الى معايشة جموع من اخوانه ، وابناء نوعه ، متعاونين على اشغال كثيرة في دنياهم . فلا بد اذن اذ كان لهم اجتماع ، من ان يكون لهم لغة ، اي دلالات او الفاظ يعبّرون بها عن المعاني التي تنشأ وتقوم في عقولهم . ولا بدّ لهذه الدلالات او الالفاظ ان تكون حسيّة ؛ لان البشر مركبون من نفس وجسد . على ان الانسان قد استعان منذ وجوده ، قبل ان يعرف الكتابة ، بالكلام والالفاظ ، للتعبير عن المعاني التي تحصل في عقله ، واتخذ قوالب الالفاظ لابراز صور هذه المعاني . اذن الالفاظ او الكتابة تدله على الصور ، او المعاني ، وذلك من قبيل الوضع ، او الاصطلاح ولهذا السبب عينه عبّرت كل امّة او شعب عن تصوّر من تصوّراتها

بلفظ غير اللفظ الذي استعملته امة ، او شعب آخر ، للدلالة عليه وهذا امر مسلّم به لا يحتاج الى بيّنة ، ولا الى دليل

اما التلفظ او النطق بالكلام فهو مركوز في جوهر الانسان ، منذ خلقته ؛ وهو يعمّ جميع شعوب الارض ، على اختلاف الوانها ، وبلادها . وهذا التلفّظ مهما بلغ الانسان من المدنيّة والحضارة ، لا يقبل التقدم ، ولا التحسّن ؛ وذلك لانهُ طبيعي ، فطري ؛ خصّه خالق الطبيعة وفاطرها بالانسان ، ليعبّر به عمّا يدور في ضميره ، ويفهم اخوانه ابناء نوعه ، ما يريد ؛ كما خصّ سبحانه ، خلائقه على كثرة انواعها ، واختلاف هيآتها ، بخواصّ يمتاز بها احدها عن الاخر . ولما كانت هذه الخاصّة ، خاصّة التلفّظ ، مركوزة طبعاً في جوهر الانسان ، كان في طاقة الآدمي ولا ريب ، ان يتلفظ باصوات تمكنه من تبيين ما يجري في خاطره ، وان يعيّن لكل صوت معنى يدلّ عليه ، وينقله الى ابناء نوعه ؛ وامكن هؤلاء ايضاً ، لمّا فيهم مثله من العقل والفهم ، ان يعقلوا وينهموا دلالات الالفاظ والاصوات .

بيدَ ان الالفاظ لا تدلّ على الاشياء من طبعها ، بل من قبيل الوضع والاصطلاح ؛ لان الشيء الطبيعي لا يتغيّر عندا كل الشعوب . امّا الوضع ، او الاصطلاح ، فيتغيّر . فا نسميه مثلاً كتاباً وندلّ عليه بهذه الاحرف ، يسميه غيرنا بلفظ آخر ، واحرف غير الاحرف التي ذكرناها . وهذا برهان على كون الالفاظ ليست تدلّ بذاتها ، على المعاني والاشياء .

٢

مساعدة الكلام للعقل

لا ريب ان الكلام يساعد العقل على توسيع دائرة تصوّراته ، واتقان معارفه . ولكن هذه المساعدة ليست ضرورية لتحصيل التصوّرات المجرّدة الكلية ؛ لان النفس تكتسبها ، بالقوى المركوزة فيها ، من اصل فطرتها . فاذن الوضع ، او الالفاظ ليست علّة الادراك ، ولا شرطاً لهُ ضرورياً لا تتمّ بخلوّه الفائدة . ولذلك يستطيع الانسان تحصيل التصوّرات ، مجرّدة كانت او كلية ، وان جهل الالفاظ الدالّة عليها ؛ كما هي حالتنا الآن ، بالنسبة الى

اكثر الاختراعات الجديدة ، التي ليس لها في امتنا الفاظ تدلّ عليها . امّا ادراك الشيء فهو شرط ضروري لا يتمّ الكلام من دونه ؛ لان الكلمة الخارجة هي بنت العقل ، ومتى كان العقل خلوًا من الصورة ، لا يقدر ان يأتي بلفظ لها . ولذلك نرى العوامّ الموقة ، متى رأوا شيئاً جديداً لا يعرفونه ، يخترعون لـهُ اذ يدركونه ، اسماً يدلّ عليه بسهولة وبلا اقلّ تكلف . فهم والحالة هذه ، احذق من الكتّاب في ايجاد الالفاظ . فاذن لا بدّ ، قبل كل شيء ، من ادراك الشيء قبل وضع الاسم للدلالة عليه . ولكن كيف يحدث اننا في عصرنا هذا ، ندرك اشياء كثيرة ، وآلات عديدة ، واختراعات شتى ، ولا نستطيع ان نسميها ، ولا ان ندلّ عليها باوضاع جديدة ؟ نظنّ الامر ناتجاً من تمسكنا بآرائنا ، واعتقادنا غنى لغتنا ، وتمكنها من التعبير عن كل ذلك ، بينما نحن نرى عجزها ولا نقرّ به ، ونتحقّق قصورها ولا نسلّم به . فاذن العوامّ اقدر من الكتّاب الماهرين على اختراع الالفاظ . رأى اولاد في احدى القرى البعيدة عن التمدّن العصري ، درّاجة (bicyclette) وللحال سمّوها : فرس حديد

لست اريد ولا احاول ، في مقالتي هذه ، ان اثبت او اذهب الى ان اللغة العاميّة اكمل من الفصحى ، ولا انها تحلّ محلّها ؛ انما غايتي ان ابيّن عجز اللغة العربيّة ، وقصورها عن القيام بحاجات كتّاب العصر الحاضر ، مهما لا يريدون ان يستعينوا بلغة اخرى ، او يجدوا طريقة يتفقون عليها لسدّ هذا الخلل . ولسنا نعبأ باقوالهم ودعاويهم بان لغتنا الحالية اغنى اللغات ، وانها اعارت غيرها كلاماً كثيراً . فهذا نوع من التبجح لا يعود علينا بأقلّ نفع ؛ اذ انها اعارت ما تملك ، واستعارت ما لا تملك ، واعطت من كلامها ، واخذت ما ليس في كلامها . فاذا كانت اللغة الفصحى عاجزة عن سدّ حاجات العصر ، فاللهجة العامية اعجز ؛ اذ الفاظها اقلّ جدًّا .

٣

اسباب الاعارة والاستعارة

اخصّ هذه الاسباب ، على ما نرى ، الجوار ، والمخالطة ، والعلم ، والتجارة وغير ذلك . فالاسبان مثلاً اخذوا عن العرب كلاماً كثيراً ، لما كان بينهم

وبين العرب من الجوار ، والمخالطة ، والعلم ، والمعاملات . ثم انتقل شيء من هذا الكلام ، الى لغات اخرى . فهذا لا يبرهن على ان الاسبان كانوا قاصرين عن وجدان مرادف ، في اللغة اللاتينية او لغتهم ، لما اخذوه عن العربية ؛ ولا سيما اننا نجد الفاظاً في اللاتينية ، لكل ما اخذوه تقريباً . ولكن الجوار والمخالطة اثرا فيهم ، حتى فعلوا ما فعلوا . وهكذا قل عن العرب ، لما مدّوا فتوحهم ، وجاوروا الفرس وخالطوهم ، واحتاجوا الى نقل العلوم التي كانوا يجهلونها ، من اللغة اليونانية ، صاحبة الفضل على لغات اكثر الدنيا تقريباً ؛ فانهم اضطروا الى الاخذ عنها ، وافتقروا الى استعمال الكلام اليوناني ، على رغم غنى لغتهم بالمترادف والصفات . ولا حاجة هنا الى تعداد الكلام اليوناني المستعمل في العربية ، لاننا لا نظن احداً ينكر هذا القول .

٤

متى تكون اللغة فقيرة وغنية . وغزيرة المادة

تكون اللغة فقيرة متى استعملت فيها الكلمة الواحدة للدلالة على معنيين ، او على معاني كثيرة . ولما كانت الغاية من اللغة ، كما قلنا سابقاً ، التعبير عن المعاني مع وضوح الدلالة ، كان كل ما يدل على الغموض والابهام في المعاني ، عيباً في اللغة ، شأنه ان يوقع في اللبس ، والتلاعب بمعاني الالفاظ .

اما اللغة الغنيّة فهي التي فيها لكل معنى لفظ ، او هي التي معانيها لا تزيد على الفاظها ، والفاظها تقوم بالدلالة على معانيها . فمتى كان الشعب قليل التبسط في الحضارة والتمدن ، كانت الفاظه قليلة ؛ ولكن مهما زاد تبسطاً في الحضارة والتمدن ، احتاج بحكم الضرورة الى معاني كثيرة ، والفاظ شتى ، فالفقر حينئذٍ منسوب الى الشعب ، صاحب اللغة ، لا الى اللغة نفسها .

واللغة الغزيرة المادّة هي التي تحوي الفاظاً كثيرة للدلالة على المعنى الواحد . ثم ان اللغة الغنيّة هي التي تكون تعابيرها حسنة الدلالة على المعاني ، وكلامها مطابقاً لمعاني الشعب الناطق بها ، ومادتها غزيرة في باب الترادف . بيد ان الترادف نوع من كثرة الترف ، والتفنّق ، والنعيم ، لا غنى حقيقي . نعم انه يعين على الاجادة في الشعر ، الذي هو نوع من الترف ، والتفنّق ،

والتأنق في الخطاب . امّـا اللغة الغنيّة ، المتقنة الاوضاع ، فهي الخاليـة من المترادف والمتوارد تحقيقاً ، او هي التي تحوي القليـل النادر من هذا النوع . وقـد يحدث ان بعض اللغات فيهـا من المترادف والمتوارد ما يدلّ على المعنى الواحد ، الشيء الكثير ، والجمّ العظيم ، ولكنها لا تحوي على كل المعاني ؛ فهي تشبه الاقوام المتحضرين في الترف والنعيم ، المتبسّطين في الخصب والتفنّق ، الذين يملكون الفضول ، ويحتاجون الى الضروري .

فاللغـة اذن تكون فقيرة وغنيّة وغزيرة المـادّة ، كما يكون الانسان في دنيـاه فقيرًا وغنيًا وترفاً متفنّقاً . غـير ان الفقير حاصل على الضروري اي ما لا يُستغنى عنه في قوام البدن ، من مـسكن ، وقوت ، وثياب ؛ اسوة بالغني الحاصل على الضروري ، والزائد على الضروري ايضاً ، اي على مـسكن يأوي اليه ، وثياب تدفئه ، وتحصن بدنه من البرد ، وقوت يمـسك روحـه ، ويقيم جسده . ولكن الغني يكون له بيت في المدينة ، ومصيف في الجبل ، وغرفـة لكل عمل ، وخدام رُوقة ، وخيل جيـاد ، وسيارات ومراكب ، ومرافق متنوّعة ، وثياب لكل فصل من فصول السنة ، والوان من الاطعمة فاخرة ، ومآكل متأنق فيها . بينما الفقير لا يملك سوى حجرة واحدة ، فيهـا ينام ، ويقوم ، ويشتغل ، ويأكل ؛ وثوب واحد لكل فصول السنة ، ولون طعـام او لونان لا يكاد يتعداهما . اما الترف فيملك القصور الجميلة ، الحسنة البنيان ، الكثيرة الاتقـان ، والرياش الفاخر ، والادوات الثمينة ، والخـدام العديدين ، ويبدل حلة كل يوم ، وله مائدة حافلة بالوان الاطعمة ، المتنوعة ، الفاخرة ، النـادرة . ومع هذا كله ، فالانسان ان فقيرًا او غنيًا او ترفاً ، لا يتغدى ولا يتعشى سوى مرّة واحـدة ، ولا يسكن الّا بيتاً واحدًا ، ولا يلبس غير حلة واحـدة وقد يقع للمترف في بعض الاوقات ، انهُ لا يسكن في ترفـهِ ، ولا يلبس ، ولا يطعم احسن من الانسان المتمتّع باللذات الناقصة التي مصدرها الغنى ، ولا يعرف مضارّ الترف ، وفضول العيش .

(للبحث صلة)

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

« ملك نجد والحجاز وملحقاتها » مع احد رجاله

(والملك هو الطويل القامة)